التاريخ: ١٤٣١/٠٣/١٥هـ
الموافق: ٢٠١٠/٠٣/٠١م

"أربعون عاماً قبل النبوة"

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله.

السيرة العطرة، معين لا ينضب، وينبوع صافٍ يتدفق، يرتوي من نميره كل من أراد السلامة والنجاة، إنها شمس ساطعة، وسناً مشرق، ومشعل وضّاء، يبدّد ظلمات الانحراف، ويهدي سبيل الرشاد.

فيما يلي أربعون عاماً من حياة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه.

أربعون عاماً كلها صفاء ونقاء.

أربعون عاماً تكلمت فيها الفطرة، وتجلّت فيها الصفات الحميدة، وظهرت فيها العناية الربانية.

أربعون عاماً هُيّأ العظيم فيها لأمر عظيم، لتكون تلك الأربعين هي بداية التغيير للعالم السفلي من ظلمات الكفر والجهل إلى نور التوحيد والعلم.

ابتدأت تلك الأربعين بـ...

(١) ولادة يتيمة!!

توفي الوالد قبل الولادة، بعد سعي في طلب لقمة العيش، ليكون على موعد مع القدر في أرض يثرب، مقبوراً في أحد مقابرها!

وأُودع الوالد والزوج الثرى، لتعاني الوالدة آلام الوضع، وآلام الفقد، وآلام مستقبل طفل تيتّم قبل خروجه للدنيا!

وتأتي ساعة الصفر وتستبشر الدنيا بـ...

(٢) ولادة محمد صلى الله عليه وسلم

وُلِدَ سيد المرسلين بشعب بني هاشم، في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، وقبل هجرته عليه الصلاة والسلام بثلاث وخمسين سنة، ويوافق ذلك العشرين أو الثاني والعشرين من شهر إبريل سنة (٥٧١م)، حسبما ذكره بعض المحققين.

وفي مكان آخر بعيداً عن ذلك البيت الصغير الذي وُلد به ذلك العظيم؛

وقف رجل يتأمل السماء والنجوم، فإذا الأمر مختلف عن العادة، فالآية ظهرت!! فما كان منه إلا أن صرخ بقومه: "يا معشر اليهود!!"، فاجتمعوا إليه فقال: "طلع نجم أحمد الذي وُلد به في هذه الليلة!".

لقد وُلد أحمد، وها هو بين أحضان أمه ترضعه وتشاركها في ذلك: أم أيمن، وثويبة مولاة أبي لهب.

وتمر الأيام، وإذا بالرضيع في...

(٣) ديار بني سعد

فانتقل مع أمه حليمة السعدية لترضعه في مضارب بني سعد بن بكر، على عادة العرب في التماس المراضع لأولادهم؛ لتقوى أجسامهم، ويتقنوا اللسان العربي من صغرهم.

وفي تلك المضارب نشأ محمد الصغير.

وبها وقف ومشى على قدميه.

وبها ضحك ولعب مع أقرانه الصغار.

فأيّ براءة وجمال كانت تشع من عيني ذلك الطفل الطاهر!

وفي تلك المضارب رعى الغنم، وسار خلفها وقادها مع إخوانه من الرضاع.

وتمر الأيام على رعاة الغنم الصغار، ويبلغ الصغير أربع سنين، وبينما هو يلعب مع الغلمان، إذ به يُصرع ويُضجع من رجلين عليهما ثياب بيض، لينطلق المنادي إلى أمه بنداء الرعب والخوف : " لقد قُتل محمد!!".

فكان ذلك القتل هو...

(٤) شق الصدر!

لقد أضجعه الرجلان، ثم أخرجا منه علقة سوداء فألقياها، فانتهت حظوظ الشيطان منه، ثم غسلا قلبه في طست من ذهب بماء زمزم، ثم أعادا قلبه إلى مكانه، فجاء الصغير إلى القوم وهو منتقع اللون.

يقول أنس رضي الله عنه: "وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره".

فلما رأت حليمة ذلك؛ خافت على الصغير من أن يصيبه شيء، فاتخذت قراراً بـ...

(٥) ردّه إلى أمه

فرجع الصغير إلى أحضان أمه ترعاه وتحنو عليه، فكان عندها حتى بلغ ست سنين؛ لتتحرك عاطفة آمنة وشوقها إلى حيث توفي الزوج ويقطن الأهل، فعزمت على السفر إلى يثرب، فتحركت المطايا، ومكثت شهراً في يثرب، ليحين بعد ذلك وقت الرجوع، وفي طريق السفر بين يثرب ومكة؛ توقفت المطايا في مكان يحمل في طياته ذكرى لا تزال عالقة بذاكرة الحبيب صلى الله عليه وسلم بعد النبوة. إذ مرّ يوماً على قبر فانتهى إليه وجلس، وجلس الناس حوله، فجعل يحرك رأسه كالمخاطب -كما يروي ذلك بريدة رضي الله عنه-، ثم بكى بكاءً لم يبكه من قبل، فاستقبله عمر فقال: "يا رسول الله ما يبكيك؟" فقال : (هذا قبر آمنة بنت وهب)!

لقد توقفت المطايا في مكان يقال له الأبواء، ليكون الصغير على موعد جديد مع اليتم، وتؤخذ آمنة منه، وتوارى بين ناظريه، لينتقل الطفل باكياً إلى...

(٦) جدّه عبد المطلب

عاد صغير الآلام إلى جدّه، والذي رقّ له رقّة شديدة، فكان لا يدعه وحيداً، بل جعله مقدّماً على أولاده وبنيه. فلقد كان لعبد المطلب فراشاً لا يجلس عليه غيره إجلالاً له واحتراماً، فكان محمد الصغير -صلى الله عليه وسلم- هو الوحيد المصرّح له بالجلوس، فيأتي الأولاد والأبناء ليُبعدوه، فيقول الجدّ **"دعوه، والله إن لهذا شأناً!!"**

وتمر الأيام ويبلغ الصغير ثمان سنين، ليكون على موعد جديد مع الآلام، فها هو عبد المطلب يُوارى الثرى، لتكون وصيته الأخيرة أن يكون الصغير عند...

(٧) عمّه أبو طالب

نهض العمّ باليتيم على أكمل وجه، وضمّه إلى بنيه وقدمه عليهم، واختصّه بمزيد احترام وتقدير.

وتمر الأيام، ويأتي على قريش سنون عجاف، أجدبت لها الأرض، وكاد يهلك بها القوم، فبات الناس في شظف من العيش، فما كان من قريش إلا أن طلبوا من سيدهم أبا طالب أن يستسقي لهم، فكان...

(٨) أبيض يُستسقى الغمام بوجهه!

خرج أبو طالب يستسقي، والسماء ما فيها من قزعة!! ومعه الغلام الصغير -صلى الله عليه وسلم- وبنيه، فأخذ أبو طالب الغلام اليتيم الصغير وهو يتذكر كلمات عبد المطلب "والله إن لهذا شأناً!!"؛ فألصق ظهره بالكعبة واستسقى.

فأقبل السحاب من كل جانب، وانفجرت السماء بماء منهمر، فقال أبو طالب:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثِمالُ اليتامى عصمة للأرامل

وتمر الأيام، ويبلغ النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم- اثنتي عشرة سنة، وفي صيف حار تحركت ركائب قريش نحو الشام، كانت قصة...

(٩) بُحيرى الراهب

ارتحل أبو طالب بقومه ومعه محمد -صلى الله عليه وسلم-، فلما وصلوا إلى بُصرى نزل القوم للراحة، فخرج إليهم بُحيرى -ولم تكن من عادته الخروج إليهم-، فتخلّلهم حتى جاء إلى الفتى الصغير وأخذ بيده وقال:

"هذا سيد العالمين!! هذا رسول رب العالمين!! هذا يبعثه الله رحمة للعالمين!!"

فقال أبو طالب وأشياخ قريش: "وما علمك بذلك؟"

فقال: "إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خرّ ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنّا نجده في كتبنا".

ثم سـأل أبا طالب ألاّ يذهب به إلى الشـام؛ خوفاً عليه من الروم واليهود، فردّه أبو طالب بغلمان معه إلى مكة.

وتمر الأيام، ويشـبّ النبي الكريم -صـلى الله عليه وسـلم-، ولم يكن له عمل معين في أول شـبابه. ولكن جاءت الروايات وتوالت بأن مهنته كانت...

(١٠) رعي الغنم

كان يسير طوال نهاره خلف الغنم، فرعاها في بني سعد ابتداءً، ثم في مكة على قراريط لأهلها.

إن مهنة كهذه يُشـترط لها الأمانة والرحمة مع طول الصـبر؛ ولذا: (ما من نبي إلاّ وقد رعى الغنم) كما عليه الصـلاة والسـلام، ولعل علّة ذلك؛ ما لصـورة القطيع من الشـبه بسـير سـواد الأمم، والراعي قائد يتطلب عليه أن يبحث عن الأماكن الخصـبة والآمنة، كما يتطلب منه الحماية والحراسة لما قد يعترض قافلة السير.

وبعيداً عن العمل وهمومه، وبعيداً عن كدح البحث عن لقمة العيش كان للنفس البشرية نوازع...

(١١) نوازع نفس محمد صلى الله عليه وسلم!

يحدثنا النبي الكريم صـلى الله عليه وسـلم عن نفسـه في تلك الفترة فيقول: (ما هممت بشـيء ممّا كان أهل الجاهلية يهمون به من النسـاء إلا ليلتين، كلتاهما عصـمني الله تعالى منهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا، فقلت لصـاحبي: أبصـر لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسـمر فيها كما يسـمر الفتيان. فقال : بلى. فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سـمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير. فقلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة. فجلسـت أنظر، وضـرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مسّ الشـمس! فرجعت إلى صـاحبي. فقال : ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شـيئاً، ثم أخبرته بالذي رأيت. ثم قلت له ليلة أخرى: أبصـر لي غنمي حتى أسـمر بمكة. ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سـمعت مثل الذي سـمعت تلك الليلة، فسـألت. فقيل: فلان نكح فلانة، فجلسـت أنظر، وضـرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مسّ الشـمس! فرجعت إلى صـاحبي فقال: ما فعلت؟ قلت: لا شـيء، ثم أخبرته بالخبر. فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشـيء، حتى أكرمني الله بنبوته).

إنها الرعـاية الربـانيـة، تقف للحيلولـة بينـه وبين تلـك النوازع، ولـذلـك جـاء في الأثر: (أدبني ربي فأحسن تأديبي).

وتمر الأيام، ليبلغ النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم- عشـرون عاماً، ليشـهد حرباً وقعت في شـهر حرام، فسُميّت...

(١٢) حرب الفِجَار

وقعت تلك الحرب في سـوق عكاظ بين قريش ومعهم كنانة وبين قيس عيلان، فاصـطف القوم ووقعت حرب ضـروس، وكان النبي الكريم يجهز النبل للرمي، وكثُر القتل في الطرفين، حتى رأى القوم أن وضـع أوزار الحرب والاصـطلاح خير من الملحمة، فهدموا ما بينهم من العداوة والشـر، وعلى أثر ذلك حصل...

(١٣) حلف الفضول

حلف الخير والعدالة، تداعت إليه قبائل من قريش في ذي القعدة، وكان اجتماعهم في دار عبد الله بن جدعان التيمي؛ فتعاهدوا وتعاقدوا على ألاّ يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم من سـائر الناس إلا قاموا معه، وشـهد هذا الحلف نبينا -صـلى الله عليه وسـلم-، وقال عنه بعد أن أكرمه الله بالنبوة: (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت).

وتمضي الأيام، ويبلغ نبينا صلى الله عليه وسلم النبي الخامسة والعشرين من عمره، ليخرج إلى...

(١٤) تجارة الشام

خرج للشـام بمال خديجة بنت خويلد رضـي الله عنها، بعد أن سـمعت بأخبار صـدقه وأمانته، وجعلت معه غلام لها يُقال له ميسرة.

فذهب عليه الصـلاة والسـلام إلى الشـام، فما لبث أن رجع إلى مكة، فرأت خديجة في مالها من الأمانة والبركة ما لم تره من قبل، وحدّثها ميسـرة بما رآه من حال الصـادق الأمين صـلى الله عليه وسلم، فما كان منها إلا أن سعت ليكون الخبر في أرجاء مكة...

(١٥) محمد -صلى الله عليه وسلم- زوجٌ لخديجة -رضي الله عنها-!

وذلك بعد أن تقدّم لها سادات قريش، فكان الإباء عليهم هو الجواب!

ثم لمّا رأت ما رأت بعد تلك التجارة المباركة؛ عزمت على نية أفصحتها لصديقتها نفيسة بنت منبّه، فقامت بدورها بذكر ذلك للنبي صـلى الله عليه وسـلم؛ فرضـي بذلك، إلا أن والد خديجة حاول الوقوف أمام هذا الزواج الميمون، إلا أن حيلة خديجة كانت حَكَمَاً قاضـياً في الموضـوع، فما الذي فعلته خديجة رضي الله عنها؟

يروي لنا ابن عباس رضـي الله عنهما ذلك فيقول: "إن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ذكر خديجة، وكان أبوها يرغب عن أن يزوجه، فصنعت طعاماً وشراباً، فدعت أبوها وزمراً من قريش، فطعموا وشـربوا حتى ثملوا. فقالت خديجة لأبيها: إن محمداً بن عبد الله يخطبني؛ فزوجني إياه. فزوجها إيّاه. فخلقته وألبسته حلّة، وكذلك كانوا يفعلون بالآباء، فلما سرى عنه سكره؛ نظر فإذا مخلق وعليه حلّة!! فقال: ما شأني هذا؟ قالت خديجة: زوجتني محمد بن عبد الله. قال: أُزوّج يتيم

أبي طالب!؟ لا لعمري. فقالت: أما تستحي؟! تريد أن تسفه نفسك عند قريش، تخبر الناس أنك كنت سكران!! فلم تزل به حتى رضي".

ويتزوج الشريف الشريفة، وتمر الأيام والأعوام على ذلك البيت الهادئ الجميل، ويُرزق منها بالبنين، والنبي الكريم صلى الله عليه وسلم يُقري الضيف، ويعين الملهوف، وينصر المظلوم، ويكون في حاجة أهله.

ويجرف مكة سيل عرم وينحدر إلى البيت فيُصدّع جدرانه حتى أوشك على الوقوع والانهيار، فاتفقت قبائل قريش على...

(١٦) إعادة بناء الكعبة

وتبني قريش الكعبة بشرط مسبوق "ألاّ يدخل في بنائها إلا طيباً؛ فلا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة لأحد من الناس".

ويشارك نبينا صلى الله عليه وسلم صاحب الخمس وثلاثين عاماً في البناء، ويحمل الحجارة من الوادي مشاركاً قومه في هذا الحدث العظيم.

ويرتفع البناء، ويعود للبيت جلاله وهيبته، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود حصل الاختلاف، وتنازع القوم في شرف وضع الحجر الأسود أربع ليال أو خمس حتى كادت الحرب أن تقوم!! إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد. فارتضى القوم ذلك. فإذا بمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب يكون ذلك الداخل. فهتف القوم: "أن رضينا بالأمين".

فطلب عليه الصلاة والسلام رداءً فوضع الحجر وسطه، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعاً بأطراف ذلك الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه في مكانه؛ فرضي القوم بذلك، وانتهى النزاع!

وتمر الأيام، وغربة النبي صلى الله عليه تزداد يوماً بعد يوم، فوجوه يعرفها، وأحوال ينكرها، كان ذا صمت طويل يزدان بالتأمل والنظر، لقد كانت تلك الفطرة التي جُبِلَ عليها تمنعه من أن ينحي لصنم، أو يهاب وثن.

فاعتزل القوم لما رأى من سفاهة أحلامهم، وتفاهة عقولهم، فكان عليه الصلاة والسلام لا يحضر أعيادهم الوثنية، ولا يشهد احتفالاتهم عند أصنامهم، ولا يحلف بالآت، ولا يتقرّب لعزى، ولا يشرب خمراً، ولا يأكل مذبوحاً على نُصب، فأبغض ذلك كلّه. يقول مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه: "...فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً حتى أكرمه الله بالذي أكرمه وأنزل عليه".

فكان عليه الصلاة والسلام موحداً على ملة أبيه إبراهيم الخليل عليه السلام.

لقد جمع الصادق الأمين من الأوصاف والشمائل ما جعلت محبته لا تقف عند البشر، بل تتعدّى للحجر والشجر، يقول عليه الصلاة والسلام بعد أن أكرمه الله بالرسالة: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم علي قبل أن أُبعث).

وتمر الأيام، حتى بدأ طور جديد من حياته صلى الله عليه وسلم، فكان يرى الرؤية ثم لا يلبث حتى يراها واقعاً مشهوداً أمامه، فكان ذلك بداية بشرى النبوة والرسالة والاصطفاء، لتكون بداية المبعث في الغار بـ{أقرأ باسم ربك الذي خلق}، ويُنادي المنادي: لقد بُعث محمد!!

فإذا عقارب السنين والأعوام قد دقت الأربعين!!

فصلوات ربي وسلامه عليه...

تلك الأربعون عر اقة الخِلال، فكيف بما بعد الأربعين، حين بعثه الله للعالمين!

{و إنك لعلى خلق عظيم}.[1]

---

(١) المراجع:

- مسند الإمام أحمد.
- صحيح البخاري.
- صحيح مسلم.
- جامع الترمذي.
- الألباني، صحيح وضعيف الجامع الصغير.
- ابن هشام، السيرة النبوية.
- ابن كثير، الفصول في سيرة الرسول.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ.
- عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.
- المباركفوري، الرحيق المختوم.
- الصوياني، السيرة النبوية.